صعتر صفد

قصة بقلم صباح محيي الدين

– وصلنا يا افندي .

واشار المهرب باصبعه الى الافق وقال: « هناك » ونظر محمد الى الافق فلم ير شيئاً ، ولو اراد النظر الى ابعد من امتار قليلة لما رأى شيئاً في هذا الليل البهيم .

ومد المهرب يده مفتوحة تغني عن الكلام ، فناوله محمد المئة ليرة لبنانية وسمع حفيفها وهي تغيب في جيب المهرب .. ومضت ثوان ، ثم قال المهرب:

– مع السلامة . تحاش ان يراك اليهود .

ثم ابتعد عن محمد وذاب في الظلام .

ولف الليل محمداً بوشاحه ، وغمره سكون عميق . وقال له شيطانه :

– الم تكن مستريح البال في دمشق ؟ . ما الذي كلفك هذا الذي انت مقدم عليه ؟ اذا اردت رأيي – وهو رأي العقل – فارجع من حيث اتيت قبل ان تندم ... وهب طلعت عليك دورية يهودية .. وهبك قتلت ! فماذا يكون قد نفعك عنادك ؟ لم يفت الاوان بعد .. عد الى دمشق ..

دمشق !! يومان مرا على جلسته مع منير فيها كأنهما قرنان كاملان ، لبعد ما يحس بين حاله حينذاك وحاله الآن .

***

ليالي ايار في دمشق جميلة ، مضمخة بعطر الزهور المتفتحة بالملايين في الغوطة ، تعقد في سماء المدينة سرادقاً من العطر الفواح . وما اجمل ليالي ايار حين يلتقي رمضان بها ، وما احلى السمر حينذاك ! .. الآف المجالس تنعقد في المقاهي ، وتختلط فيها غرغرة النراجيل بضحك الضاحكين وحديث المتحدثين ، في جلبة حية تنبض بالمرح والسرور ..

وفي احد هذه المقاهي ، جلس اربعة شبان على مائدة تكاد تتدلق على الرصيف ، يتحدثون باهتمام وحماس ، لا يفرقهم عن عشرات الجلاس الاخرين شيء . الا ان الاذن كانت تتبين في كلامهم لهجة ليست بالشامية البحت ، كما انها ليست باللبنانية . ولو ان الاذن نفسها بالغت في الفضول واسترقت السمع لطرقتها كلمات واسماء غريبة عن الشام وعن سوريا ولبنان.

– هل سمعت ما جرى بعلي من الناصرة ؟

– لا . آخر عهدي به في ليبيا استاذاً في احدى الثانويات

– لقد مل المقام فيها على ما يظهر فعاد الى الاردن .

– عاد الى الاردن ؟ لا يا شيخ !

– بلى ... لقد كتب الي ابن عمي الذي يعمل في البنك العربي بأنه شاهده في عمان منذ بضعة ايام .

– ما الذي عاد به الى الاردن ؟ اتذكر يوم اقسم امامنا انه لن يعود الا الى فلسطين ، لان الغربة في بلاد بعيدة – على حد قوله – اقل مرارة من الغربة على مرمى النظر من الوطن ؟

– لقد عاد لان والدته كانت مشرفة على الموت . الا انه لم يدركها ، ولم يشهد الا جنازتها . ويقول ابن عمي انه ناوٍ على ان يستقر في عمان ، بالقرب من والدته .

وران على المجلس صمت قصير ، سرعان ما قطعه احد الجالسين :

– هل قرأ احدكم مقال فلان في جريدة « فلسطين »؟

ودار الحديث سريعاً ، فانتقل من فلان الى اسعد الذي استقر في انكلترا واخذ الجنسية البريطانية ، وعن فؤاد الذي يعمل مهندساً زراعياً في دير الزور ... وعن كثيرين من اهل فلسطين فرقتهم الفاجعة بدداً في انحاء العالم . واشترك في الحديث كل الحاضرين ، الا واحداً ظل صامتاً ، لا يحير ، ساهماً كأنه يرى بعينيه رؤيا خفيت على الآخرين . وصاح به احدهم مازحاً :

– اي يابا ! يا محمد ! نصف الالف خمسمية ! اتراه رمضان قد اثقل عليك ؟ عدّ يومين ويأتي العيد . لقد ذهب الكثير وبقي القليل .

– لا والله يا منير . ليت كل الصعاب مثل صعوبة رمضان .. كنت افكر في علي .. انه على حق فيما فعل .. ان للاموات علينا حقاً .. فهم صلتنا بالارض التي خلفناها وراءنا .. انهم جذورنا في التربة التي اخرجتنا منها.

فاستضحك منير وقال :

– ولكن والدتك ، رحمها الله ، قد توفيت منذ زمن طويل .

فقال محمد :

– وهل للوقت دخل فيما اقول ؟ اغبي انت ام تتغابى !

فاجابه منير بصوت جدي :

– فهمت والله ... فهمت ما تعني .. ولكن .. انت هنا في مركز حسن وقد فتح الله عليك ابواب الرزق .. اليس من الافضل ان تكون مدرساً في دمشق من ان تكون .. الله اعلم ما تكون .. والشام وعمان سواء . لم اكن افكر بالعودة الى عمان ، فليس لي فيها احد . وانما كنت افكر بالعودة الى صفد ، الى قبر والدتي ، علني ازوره في هذا العيد الآتي . اذكر ، حين كنت في صفد ، اني كنت ابدأ العيد بزيارة قبرها .. اترى هل تركه اليهود على حاله ؟ .. وبيتنا .. والبستان ؟..

ولم يتم محمد جملته وعاد ساهماً يحلم ..

وقال منير :

– دع عنك هذه الافكار الصبيانية .. فاين انت من صفد واليهود يعجون فيها عجاً ؟. ولنفرض انك وصلت صفد .. وبعد ذلك ؟ .. خذ كل من هذا اللوز الاخضر

– انه يذكرني بلوز صفد .. كم سرقنا منه ونحن اولاد صغار ..

– وهذه الجبنة بصمتر .. ذق منها ما اطيبها !

– الا تذكرك بصمتر صفد ، احسن صمتر في العالم ، صمتر وادي الحمراء ، احسن صمتر في العالم ، كما كان يقول والدي .

فقال منير بلهجة من يهديء طفلاً عنيداً :

– الحق معك .. لوز صفد .. وصمتر صفد .. لا يعادلها شيء . ولكن اين نحن من هذا كله ؟

فاجاب محمد بحنق :

– نحن على سفر ساعتين بالسيارة .. نفطر هنا ونتغدى في صفد اذا شئنا

– قل اذا شاء اليهود .. كن واقعياً والا ..

وهنا ضحك منير وقال :

– والا ، اذا ذهبت الى صفد فلا تنس ان تأتيني ببعض الصمتر .. فهو كما قلت ، احسن صمتر في العالم .

فضحك الجميع وشاركهما محمد ضحكهم ، وعاد الانسجام الى المجلس . ثم حان موعد السحور ، فافترق الاصحاب وهم يهنئون بعضهم بعضاً بقرب انتهاء رمضان واقتراب العيد .

***

احس محمد بدبيب غير بعيد منه ، فافاق من ذكرياته وما زالت ضحكات اصدقائه ترن في اذنيه . ولمعت في الظلام نقطتان من النور ، ما عتم منير ان رأى انها لهرّة اقتربت منه واخذت تتمسح به ، فانحنى عليها ومرر يده بلطف على رأسها وخلف اذنيها وتحت ذقنها ، فاخذت تهرّ هريراً ناعماً ، راضية مسرورة . وارتسمت على شفتي منير ابتسامة امتزجت فيها الشفقة بالسخرية وقال يخاطب نفسه :

– هذه الهرة الشاردة خير من يستقبل المتسلل الى ارض اجداده .. وما اظن اليهود اذا قبضوا لي يستقبلوني بالمسح على رأسي ..

ومد يده بحركة آلية الى جيبه ليخرج لفافة فصادفت ملمس « المشلح » الخشن . وتذكر انه استبدل ملابس الافندي بالقميص والعباءة والكوفية والعقال حتى يظن اليهود ، اذا صادفوه ، انه من البدو الرحل . وبدت على فمه لعنة خافتة، ثم بدأ يمشي نحو الافق الذي اشار اليه المهرب حين قال،

– هناك

***

وهناك هذه .. كانت صفد . وصلها بعد ساعات من السير الحذر آتياً من الشمال ، من الطريق الذي يمر بين جبل الاكراد وجبل كنعان . وانحدر نحو المقبرة ماراً بعين العافية . ووجد محمد المقبرة في مكانها وقد تهدمت جوانب بعض القبور ، وطغى العشب عليها . وسار محمد على ضوء ذكرياته الى حيث ترقد والدته رقدتها الاخيرة ، فوجد شاهدة القبر مائلة نحو الارض ، والازهار البرية تملأ حوضه . فجلس على الارض ، وبصورة لا شعورية ارتفعت الى شفتيه كلمات كان قد خيل اليه انه نسيها ، كلمات سورة الفاتحة وبعض آيات القرآن . ارتفعت الى شفتيه من اعماق سحيقة . وعجب كيف ان كيانه القديم قد بعث بعد موت سبع سنين واكثر ، امام هذا القبر الذي اتى من بعيد معرضاً نفسه للموت لينظر اليه ويتحدث الى ساكنته .

واحس محمد بفيض هائل من الانفعال يطغى عليه فاسند رأسه الى الشاهدة ، واخذ يردد بهدوء آلي :

– امي ، امي ، امي .

وداخل برد الحجر وجهه كأن والدته تمسح على خده حين كان يعود لاهثاً يوم العيد بعد ان لعب الساعات الطوال مع الاولاد امثاله . ورأى نفسه من جديد وهو صغير ، وقد لبس بدلة جديدة ونزل يركض في شارع الغزاوية مع اولاد خاله ، ويقف تحت الجسر وينادي فيسمع صوته يردده الصدى .. ثم يتسلق شجرة الميش ويتضارب مع اولاد خاله ، ثم يميل نحو عين العافية فيشرب منها ويصعد حتى كرم ابي حسين يأكل العنب ، ويطلع على درجات السوق حتى قلعة الظاهر بيبرس من جنب الحاووظ يتفرج على غروب الشمس ، وينزل عليه وعلى اولاد خاله الليل ، فيعودون الى البيت ركضاً ، والبيت في حارة الاكراد وبينها وبين القلعة مسافة وواد ، فيصل الى البيت وهو ينضح عرقاً فتتلقاه والدته والقلق باد في عينيها :

– اين كنت يا بني .. لقد خفت ان يكون قد اصابك مكروه !

ثم تمسح عرقه بيديها . وما الطف لمس يديها على وجهه . وما اجمل الحياة في البيت معها ومع والده .. البيت ، ترى ماذا جرى له ؟.. اتراه كما كان ؟..

وقطع حبل احلام محمد زقزقة عصافير في اشجار المقبرة فاستفاق لنفسه ونظر الى ساعته فوجد انه قضى اكثر من ساعة الى جانب قبر والدته . وعاد الى الحاضر وصورة البيت في ذهنه ، وبدا له انه من الواجب عليه – لنفسه ولوالدته – ان يزور البيت ليراه ولو مرة واحدة .

ونهض محمد وقال بصوت خفيت تخنقه العبرات :

– وداعاً يا امي .. بل الى الملتقى .. سأعود .. سنعود .

وتوجه محمد نحو حارة الاكراد وهو يتحاشى الشوارع المنارة ، ويسير في الازقة التي يملأها الظلام، ويسير حوله موكب حافل من الذكريات والاشباح : ها هو صغيراً يسرق الرمان من بستان ابو احمد وصوت الناطور يصيح به : وقف لقلك .. ولكن كيف يقف ، ويد ابو أحمد ثقيلة وعصاه اثقل .. وها هو في اول شبابه لا يكاد يفارق عين العافية طول نهاره بسبب دعد التي كانت تأتي الى العين (عجيب ! لم يخطر له ان يعشق منذ خرج من فلسطين كأن نبع الحب فيه قد نضب) .

وتزاحمت الاشباح تواكب خطواته وهو يتلصص السير نحو بيته القديم .

***

البيت والبستان لم يتغيرا ، بمقدار ما امكن لمحمد ان يرى على ضوء النجوم ، الا ان اليهود ضربوا حولها سياجاً من الاسلاك الشائكة : وتسلسل محمد من خلال السياج ودخل البستان وجلس في مسكبة مزروعة خسا – كأن البستان ما زال في عهدة والده – واخذ ينظر الى البيت والليل يلفه في وشاح مضمخ بعبير الربيع وسكون لا يقطعه الا صرير الجنادب ، كأن العالم ما زال قبل ١٩٤٨ ، وكان العرب ما زالوا في اوطانهم لم يتركوها للاعداء القادمين من أقاصي الارض بباطل تدعمه

بعد الاقبال الشديد الذي ناله كتاب « خصام ونقد » في الاسواق العربية يقدم عميد الادب العربي احدث كتبه :

نقد واصلاح

للدكتور

طه حسين

دار العلم للملايين

قوة العالم اجمع .

وذكر محمد تلك الساعات الطوال التي كان يقضيها في البستان ايام كان مراهقاً وكانت آماله تملأ الدنيا واحلامه تفض عليه مضجعه فيخرج ليسبح في عوالم الرؤيا . كان يحب هذه الزاوية لانها تطل على الوادي وينسرح منها البصر في اغوار بعيدة وكان الفجر يطلع عليه احيانا وهو في موضعه ، يحلم وينسج حياته المقبلة من اشعة القمر ونسمات الليل . وكانت امه تستيقظ لصلاة الفجر وتظهر من النافذة فتراه وتقول له :

- يا ولدي .. ستموت من قلة النوم .. الله يسامحك .. تعال نشرب قهوة .

ويدخل البيت فتكون والدته قد عمرت الركوة على طباخ الكاز وعبقت رائحتها في البيت . وتمر والدته بيدها على جبينه بلطف وتتمتم شفتاها بالدعاء له ..

وهبت نسمة باردة على وجه محمد كأنها يد والدته الحنون .. ونسي انه في بلاد العدو بل وفي عقر ديارهم - التي انتهبوها منه - وغص حلقه بالانفعال المكبوت وكاد يصيح من الالم والغضب والاسف والشوق .

وفجأة انشعل ضوء في احدى نوافذ البيت ، اترى انفعاله غلبه فلم يستطع كتم صوته ؟ اترى غضبه نم عنه ؟ وعلا لفظ باللغة العبرية ثم انفتح الباب وخرج رجل بيده بندقية « ستين » واتجه الى البستان . ولبد محمد بسرعة على الارض ومس خده وشفتاه التراب المبتل بندى الليل ، فملأت انفه ورئتيه رائحة التراب وسرت حتى في عروقه . وقبل محمد الارض بشغف واحس بنبضه يدق في عروقه ويتردد في الارض .

[ما اغرب الحياة !.. يعيش الانسان على الارض حياته كلها وكأن بينه وبينها آلاف الكيلومترات ، يسير عليها ويبني عليها ويتغذى منها .. ولا صلة له بها . اتراه ، اترى محمد ، اتراهم كلهم ، كل هؤلاء الذين تركوا فلسطين ، لو انبطحوا على الارض ولو مرة مثلما انبطح ، في هدأة ليل مثل هذا الليل المرصع بملايين النجوم ، اتراهم لو احسوا بطعم الارض على شفاههم وبرائحة الارض في انوفهم وبنبض الارض في عروقهم .. اتراهم كانوا يتركون اوطانهم بهذه السهولة .. اتراهم كانوا يستجيبون ويستسلمون لدعوة الداعين وتهويل المهولين ؟]

واخذ اليهودي يتجول في البستان بخطوات حذرة ، ويلقي في الظلام نظرات ثاقبة ويده على زناد بندقيته ، والنور الآتي من البيت يلمع على الفولاذ لمعاناً رهيباً . وبدا اليهودي لمحمد الناظر اليه من اسفل ، ضخماً هائلا والنور يأتيه من خلفه فكأنه عملاق لا وجه له .. ظلام يحيط به ظلام وفي يده البندقية يبرق فيها الموت السريع . والتقى محمد بالارض حتى كاد يدخل في احشائها ، اذ ان اقل نأمة منه كانت تعني الموت. المحقق برصاص اليهودي . وكاد محمد ان يضحك، وشر البلية ما يضحك ، ما احلى ان يقتل في بستان بيته بعد سبع سنوات من خروجه منه خروج المنهزم ، فيموت ميتة اللص المتسلل ، بعد ان كان في مقدوره ان يموت ميتة الابطال الشهداء وهو يدافع عن داره .. وعن وطنه .

وانقضت دقائق طويلة طول الازل ، عاد اليهودي بعدها الى البيت واطفأ النور . وعاد البستان الى الظلام الوادع وعطر الربيع واشباح السنين الخالية . وخشي محمد ان يستيقظ اليهود من جديد وان ينعموا التفتيش في البستان فيعثروا عليه ، فنهض من موضعه بحذر واجتاز السياج من جديد معولاً مغادرة صفد قبل ان يأتي الفجر ... الا انه ذكر امراً ، فحول خطواته نحو وادي الحمراء وسار مسرعاً كأنه على موعد مستعجل .

***

وظل اصحاب محمد في الشام بدون خبر منه واستبد بهم القلق وتساءلوا عما حدث له . وذات صباح وردت الى منير رسالة وصرة صغيرة من الاردن ، وفتح الرسالة فاذا بها من محمد يقول فيها :

« اخي منير .

اكتب اليك من معسكر اللاجئين الفلسطينيين في بيت جالا . لقد قبلت ان اصبح معلماً هنا ، على مرمى النظر من وطننا الذي ذهب من ايدينا لاننا لم نتعاق به كما يتعلق الطفل بامه .

لقد مرت بي تجربة لا اريد ان اعيدها في حياتي . لقد وجدت نفسي وجهاً لوجه مع يهودي في بستان بيتي الذي ولدت فيه ، فانبطحت على الارض والرعب يرتكض في امعائي . لقد كدت ادخل الارض في بستان بيتي امام هذا الافاق الذي يحتل مسقط رأسي ..

لو ادركنا اننا سنقف ذات يوم مثل هذا الموقف لفضلنا الموت الف مرة على ان نتخلى عن اوطاننا . وانا الان اريد ان انسى شعور الذلة والاحتقار لنفسي الذي ملأني في تلك اللحظة .. اريد ان اغسل خيانتي لوطني بالعمل على استعادته بما في وسعي .

قد تقول : ولكن ما فائدة بقائك حيث انت ؟ هل ستستعيد فلسطين لوحدك ؟ قد يكون سؤالك منطقياً . ورأيي اننا خسرنا فلسطين بالمنطق، منطق الاستكانة والخوف من المسؤولية والبخل .. نعم منطق البخل .. فلو بذلنا بعض العاطفة ، عاطفة الحب والتضحية لكنا ما نزال الآن في بيوتنا .. ولما زال ذلك اليهودي الذي يسكن بيتي في زاوية قذرة من زوايا رومانيا او بولونيا او روسيا او ..

ولا تقل لي : « ولكن هل تظن الامر سهلا الى هذا الحد وانك عائد الى فلسطين قريباً ؟ » - فاني سانتظر .. لقد انتظر اليهود آلاف السنين على غير حق . اما نحن فمن حق ننتظر ، ولن يموت حق وراءه طالب .

لقد بحثت الامر مطولاً وبهدوء . سأعلم الاولاد هنا ان خلاص فلسطين لا يتم الا على ايدي الفلسطينيين ، على ايديهم هم ، وان لا عودة لنا اذا انتظرنا ان يتكرم علينا غيرنا بالدفاع عن قضيتنا كما تكرموا عام ١٩٤٨ . انه وطننا فقدناه بخطأنا وعلينا ان نسترجعه بانفسنا .

قد لا ارى عودتنا الى الوطن بعيني . الا انني سأموت راضياً قرير العين والقلب ، مؤمناً باني وفيت بوعدي الذي قطعته امام قبر والدتي .. ساموت في اقرب نقطة من وطني السليب .

محمد

ملحوظة : تجد مع هذه الرسالة صرة صغيرة فيها ما كنت قد طلبته مني في آخر ليلة لنا في المقهى .

***

وفتح منير الصرة ، فملأ خياشيمه عبق لا يخطئه من عاش وشب في صفد ، ودمعت عيناه اذ رأى ان الصرة تحتوي غصناً من الصعتر ، لم يذبل بعد .

لندن

صباح محيي الدين